فصوغوا القوافى للخلود وللصبا ... وللرأى والأخلاق ما طلع الفجرُ
ولا تركنوا للخلف فالخلفُ فاضحٌ ... لما كان يخفيه التسامُحُ والسِّترُ
اذا كان هذا الشعرُ قائدَ نهضةٍ ... فبالخُلق المحمود يحلو له الفخرُ

عامر محمد بحيرى

محمد حافظ ابراهيم

فى كفتى البؤس والمجانة

يتوهم البعض أننا اذا قلنا إن حافظاً كان أخا بؤس — لازمه صغيراً، وصاحبه كبيراً — أنه كان مملقاً، وأن فقره علة العلل فى ابتئاسه. وقد يكون الأول صحيحاً ولكن الى حدٍ، أما الثانى فهو موضع بحث ونظر ثم خلف وجدل، فليس كل بؤس مسبباً عن الفقر، وحافظ بائس، فليس يحتم نشوء بؤسه عن فقره. وقد يكون هناك المنطق صحيحاً، فنحن نرى بين ظهرانينا الكثير من المعدمين يروحون ويغدون ونضرة الطمأنينة تعلو وجوههم، وطائر السعادة يرفرف فوقهم. كما أننا نرى الكثيرين ممن جادهم المال بوفرته لا يكادون يستشعرون أن هناك سعادة، بل لا يصدقون أن هناك سعادة فهى اسم لا مسمى له وإن هى الا وهم وخيال . . .

وقد نسمع أن كثيراً من رجالات الفكر وحملة الأقلام كانوا فقراء معدمين بائسين وأن الجهلة الأغبياء كانوا فى يسر ورخاء وطالما أنشدونا :

رِزقُ التيوسِ يجيئها بسهولةٍ ... وأولو الفصاحة رزقُهم مسجونُ
إن كان حرمانى لأجل فصاحتى ... فامننْ علىّ من التيوسِ أكونُ!

والمنطق فى ظاهره يحيل هذا الذى يبدو غريباً فى مظهره، فليس بمسلم أن يعجز المفكرون — وهم المفكرون — عن أمر تناله الأغبياء المفاليك — وهم هم!

وربما تزول الغرابة اذا نحن فهمنا أن الفكر دائبُ الطموح لا يرضى لنفسه ما هو فيه وإن كان فى التعيُّق فهو متطلع الى العلوّ أبداً ناظر الى السماء دائماً، يرى أنه

مغبون وليس بمغبون ، تعس وليس بتعس ، فقير وليس بفقير ، ومن هـذا الباب وحده تهاجمه كتائب البؤس وترشقه بسهامها وترميه بنبالها ، وهكذا :

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعمُ

هذا هو المعقول ، أما أن نقول — اطلاقاً — إن رجال الفكر وحملة الأقلام معدمون بائسون فتلك دعوى عريضة نسمعها كل آن وسيعلم الباحثون مكانها من الحق والتاريخ .

على ضوء هذا الفكر نستطيع أن نقول — مع القائلين — إن حافظاً كان فقيراً بائساً . ولمَ لا يكون بائساً ؟ بل ولمَ لا يكون شيخ البائسين ؟ !

ألم يسعَ حتى كاد ينتعل الدمَ ثم لم يحظ من الحياة بما يريد ؟ ثم ألم يلبس الدجى والليل هادىء « والنجم يحسبه ثامناً للسبعة الشهب » ولكنه مع هـذا ، ومع كل هذا غير مجدود ، ومافتئت يد المقادير تقصيه عن الأرب ؟

واستلان الحياة فجمدت ، واستعطفها فغلظت ، ولاطفها فلم تزدد الاشحاً وبخلا ، وطرق على السعادة كلَّ باب فلم تزدد الا اباءً وشروداً . ولما أعيته الحيلة مع الحياة ، وفاضتْ الكأس ، وطفح الكيل ، جاهرها هو الآخر بعدائه ، وأعلن عليها حرباً كلامية شعواء وشنها غارة حامية الوطيس ، فرماها بما رمى ، فهى العاهر البغى اللعوب القلب ، ما سرّت يوماً إلا أبكت فى غده ، وأنها قد أضرت به فهام باخنها هرباً منها وفراراً ، واستحسن مذهب مانى صاحب نظرية تعجيل الفناء بقطع النسل فقال :

لعل « مانى » لاقى ما أكابده فودَّ تعجيلنا من عالم الشَّجَبِ !

وحلق فى الجو الذي حلق فيه أبو العلاء فانطلق يقول :

عليكِ جنيتُ يا نفسى وقبلى عليكِ جنى أبى فدعى عتابى !

وعتب على نُوح حمل الناس معه وقد كان فى مكنته أن يتركهم يغرقون فيستريحون ويريحون ، وهو لهذا لم يُخلص للناس النية ولم يمنحهم الودّ الصحيح :

ويا نُوحاً جنيتَ على البرايا ولم تمنحهمُ الودَّ الصحيحا

علامَ حملتَهم فى الفُلكِ ؟ هلا تركتهمو فكنتَ لهم مُريحا ؟

ولا أريد فى هذا المقام أكثر من أن يضع القارىء صورة حافظ العابسة التى ترتسم فى ذهنه بعد قراءته هـذا الـكلام بجانب صورته الأخرى : صورة حافظ الطروب الضاحك المداعب !

حافظ الذى ذكرنا له من البؤس والتبرم بالحياة والضجر منهـا والثورة عليها ما ذكرنا هو حافظ الذى يملأ كل جوّ يحيط به مجانة ودعابة وفـكاهة ، هو حافظ الذى يتنادر الادباء بحديثه ، ويتنادرون بنـكاته حتى قال العقاد على قبره :

أبكاءٌ وحافظ فى مكانٍ ؟!   تلك احدى عجائبِ الحدثانِ !

صورتان للرجل : أولاهما عابسة يائسة بائسة ، والثانية ضاحكة صـاخبة ماجنة ! صورتان متباينتان على لوحة واحدة هى الحياة !

كيف هذا ؟

وهل هـذا معقول ؟ الأمر لا يحتمل جدلاً ، فانه واقع والواقع لا يرتفع . إذاً فـكيف نفسر هذا ؟ كيف نفسر البؤس يعتنق المجانة ؟ !

لعل مجانته كانت ضرباً من التهكّم بالحياة والسخرية وعدم الحفل بهـا ، فهو يتهكم بالحياة ويسخر بالدنيا ، ويصوغ ذلك فى قالب من الفـكاهة تحمل على أجنحة الضحكات أقسى معانى الألم ، وأبلغ معانى البؤس ، فهو إذ يرسل لك نـكاته يصوّر لك حالة نفسية فى صورة بهجة تتقطع لها نياط قلبه فى الوقت الذى تمتلىء الاشداق ضحكاً لها ، وسروراً بها .

وهذا معقول ومقبول أيضاً ، لولا أن حافظاً الذى أعرفه لم يكن من فلسفة الالم الى هذا الحد بل ولا الى غير هذا الحد .

إذاً فـكيف نفسر المجانة تُؤالف البؤس ؟

ألا يصح أن يكون ألم الرجل البالغ نقله طفرةً من طور البؤس الى طور المجانة ؟! النظرية فى ذاتها من حيث هى نظرية سليمة ، فان الشىء اذا زاد عن حدّه انقلب الى ضدّه ، وأنت تشاهد كثيراً من الذين يصابون بفادح الخطوب ينقلبون مهمومين هاذين ضاحكين بل وربما معربدين راقصين !

إذا صحّ هذا فهل لا يصح أن يكون حال حافظ من هذا النوع ؟!

معقولٌ أن يكون ، ومقبول أيضاً ، لولا أن ابتئاس حافظ لم يكن من هـذا فى شىء ولم يكن حافظ فى ذاته من هذا فى شىء .

إذاً فكيف نستطيع أن نفهم أنه كان بائساً ماجناً ؟!

ألا يكون الرجل لما نزلت به الهموم — وهي أثقل الضيوف ـ وضاق بها ذرعاً ، لم يجد طريقاً يرفه عن نفسه بها الا طريق المجانة فارتمى بين أحضانها يشرب من وردها سائغاً يغسل الهموم ، وينفس عن القلوب ، ويروّح عن النفوس .

وهذا هو الآخر معقول ، وربما كان مقبولا ، لولا أننا نتساءل لماذا لا ينفس عن نفسه الا حينما تزوره المادة أو تواتيه ظروف المجانة ، ولو كان هـذا صحيحاً لتطلبها الرجل كلما حزبه الهمّ وفدح ، ثم انه لو كان واقعاً لما كان مطبوعاً عليه بل لجاء متكلفاً ظاهر التكلف .

إذاً فبماذا نعلل هذا ؟

ألعله كان مطواعاً للظروف والأحوال : فهو بائس يوم تنزل به ظروف البؤس ماجنٌ ساعة تواتيه ظروف المجانة ، فلهذا ظروفه وملابساته ولتلك ظروفها وملابساتها. وقد كان يتفق لحافظ أن يقع في يده قسط من المال غير قليل ، فلا يكاد يستقر في حافظته حتى يتطاير الخبر الى وليجته والى وليجة وليجته ، فيجتمعون على ما يجتمعون ، ويقضي شاعرنا سويعات أنسه ، وأويقات سروره ، حتى اذ ما نضب المال وهو لا بدّ ناضب رجع الهزار الى وكره حزيناً بائساً مهيضاً . إذاً لحافظ بائس يوم بؤسه ، ماجن يوم أنسه .

وهذا معقول ومقبول أيضاً ، لولا ... لولا ...

لولا ماذا ... ؟!

لا شيء ! لاشيء فإن هـذا هو الواقع ، وبه نستطيع أن نجمع بين صورتيه المتناقضتين فيما يبدو للناظر ، وهي ناحية أهملها اخواننا الكتاب لانكبابهم على شعره وتركه هو فيما دون ذلك !

وبعد فقد كان يجدر بنا أن ندرس أمثال تلك المناحي في حياة الراحل العظيم ، وهي كثيرة لم يكتب عنها الكتّاب الا عرضاً وتلميحاً .

ايها السادة الادباء ! لن نستطيع أن نفهم الشاعر من شعره حتى نفهمه هو حق الفهم ، وكم كنت مستغرباً للدكتور طه حسين أخذه على العقاد أن يكتب عن ابن الرومي في غير شعره الى هذا الحد !

أحسب أنه اراد أن يأخذ عليـه إهماله شعره ، وهل كان الشعر الا صـدى لامثال تلك العوامل ؟ والباحث العميق من نفذ من القشور الى المصاص ، ومن الألياف الى اللباب ؟

طاهر محمد أبو فاشا

بداهة حافظ

كان حافظ ، رحمه الله ، حاضر النكتة ، حلو الحديث ، طلق اللسان ، سريع البديهة ، وهاك مثلاً على ذلك : —

زار حافظ – أيام بؤسه – مدينـة السنبلاوين ، فأضافه كبير من عائلة (سليط) وهو صادق افندى سليط — فلما دخل حافظ المنزل مع مضيفـه ، جلسا فى بهو من الأبهاء الفسيحة ، وكانت صورة صادق افندى الزيتية الكبيرة معلقة على جدار من جدران هذا البهو ، فطلب منه صادق افندى أن يصف هذه الصورة ووعده خمسة جنيهات على كل بيت يقوله ، واشترط عليه ان لا يستغرق فى نظم البيت الواحد أكثر من دقيقة واحدة ، ثم اختار له البحر والقافية ، وأمسك الساعة توآ — فاذا بحافظ يتحف الحاضرين بخمسة أبيات جميلة جداً لا أتذكر منها إلا هذين البيتين وهما :

سألنا عزيزَ المجدِ اهداءَ صُورةٍ   تموجُ بها أوصافُهُ والخلائقُ
فقال لنا لما رأى رسمَ صادقٍ :   خذوا صورة الأمجاد، فالمجد صادقُ

فنال بذلك الجائزة ، وكم كانت دهشة الجميع عظيمة عند ما قال لهم صادق انه استغرق فى نظمها أقل من الوقت الذى أجازه اياه بدقيقتين — وليس يخفى على أحد ما فى البيت الثانى من التورية الظريفة أيضاً . وهذا مثل واضح على حضور ذهنه ، وسرعة بديهته ، وذلاقة لسانه .

فلئن فقده الشعر والأدب فانّ فقـده عظيم ورزءه جسيم ، ولئن بكاه الناطقون بالضاد فى أنحاء المعمورة فقد بكوا ملكاً متوجاً فى ميدان القول نثراً أونظماً ، رحمه الله رحمة واسعة ؟

محمد سعيد السحراوى